ببعضها البعض إرتباطاً وثيقاً ، وتتجمع كلها فى جهاز مركزى واحد له هدف مشترك . ومما لا شك فيه أن تلك **أول نظرة إلى المدينة (المجتمع) تتميز بالشمول** ، وتتميز بالتعبير عن الحياة المشتركة والتعاون الوثيق والهدف الجماعى . ومن ثم فإن أفلاطون بنظرته هذه قد أوضح الضرورة الاجتماعية التى تجعل من المدينة أو (**الدولة**) أول تنظيم اجتماعى وسياسى تدعو إليه الطبيعة البشرية . ذلك أن الدولة وحدة جماعية أو مجموع منظم من الناس ، دعائمه إنسجام الرغبات الخاصة والإرادات الفردية وتوازن الميول والمصالح الذاتية ، ومن الضرورى أن تكون لها أرضا معينة تقوم عليها ، ولها مواردها المالية ونظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتخضع لسياسة موحدة وتسعى وراء هدف عام مشترك .

وفى هذا ، أى فى نشاة الدولة (المجتمع) يقول أفلاطون « **إننى أرى أن الدولة تنشأ لعجز الفرد عن سد حاجات نفسه بنفسه وإفتقاره إلى معونة الآخرين. ولما كان كل إنسان محتاجا الى الاعتماد على معاونة الأغيار فى سد حاجاته ، وكانت حاجات كل إنسان كثيرة لا تقع تحت حصر ، لزم أن يتجمع عدد أجزل منا ، من صحب ومساعدين فى مستقر واحد يعيشون فيه . وقد أطلقنا على ذلك المجتمع اسم « مدينة » أو « دولة » . ونواة كل مدينة التى تنمو منها هى أربعة أو خمسة من الرجال ، يزداد عددهم تدريجيا ، ويتكاثرون الى أن يبلغ سكان المدينة عددا غير معين من الناس ، يتخصص كل منهم فى فن أو مهنة أو حرفة معينة ، ويكون من بينهم الحكام وهم حراس المدينة** » .

هذه الوحدة الاجتماعية لا تتحقق وحدتها الروحية فى مجتمع يسترق بعض أفراده البعض الآخر ، أو تطغى مصالح جماعة منه على مصالح جماعة أخرى ، بمعنى أن (**الحاجة الإنسانية**) هى أساس تلك الوحدة الاجتماعية أو بالأحرى هى أساس ذلك النظام الاجتماعى الذى يتجسد فى المجتمع . ومن ثم فإنه من الضرورى أن يحقق المجتمع إشباعاً كاملا لأفراده ، وفى

حاله عدم كفاية الإشباع يتعاون الأفراد فى مجهود جماعى **يحقق لهم الإشباع** المادى والروحى .

ويحدد أفلاطون وظائف الدوله بأنها ثلاثه هى : **الإنتاج والدفاع ، والإدارة** وهذه القوى أو بالأحرى هذه الوظائف الثلاثة تتشابه مع **القوى** الثلاثة فى النفس الإنسانية وهى : **القوة الشهوانية ومركزها البطن والقوة الغضبية** أو قوة النزوع ومركزها **القلب** ، والقوه الناطقة أو **القوة الفكرية ومركزها الرأس** . ويربط أفلاطون بين كل وظيفة من وظائف الدولة والقوة التى تماثلها ثم يحدد من يقوم بكل وظيفة من تلك الوظائف .

إذ يقول أفلاطون إن « فى الدولة ثلاث قوى متمايزة هى : **المفكرة ، المنفذة** ، والمنتجة . يقابلها فى الفرد ثلاث قوى متمايزة هى : **القوة العقلية** ، ووظيفتها القيام بعمل يشبه عمل « حكام » الدولة فى مملكة النفس أى أن عملها يتعلق بالحكمة . والقوة الشهوية ، وتقوم مقام الشجاعة فى الدولة وتساعد الحكومة ، كما يعاون « **المساعدون** » الحكام . ومتى إقترنت هاتان القوتان بالموسيقى والرياضة ، **نتجت القوة الغضبية** وهى حقيقة الذهن الطبيعية . وكما أن الدولة تكون عادلة إذا التزم كل من أقسامها الثلاثة عمله الخاص ، كذلك يكون الفرد عادلا إذا التزم كل قسم من أقسام العقل عمله الخاص .

اعتبر أفلاطون ضرورة الحياة هى الدافع الجوهرى لقيام المجتمع ، ومن ثم فإنه من الضرورى وجود طبقة تتحلى بالرغبه فى العمل ، بمعنى أن وظيفتها تقوم على تحقيق الحاجات الأساسية والرغبات الخاصة ، أى القيام بالعمل فى المجالات الإنتاجية . أى أن وظيفة هذه الطبقة تشبه وظيفة (القوة الشهوانية) فى النفس البشرية .

وإذا كانت ضرورة الحياة هى الأساس لقيام المجتمع ، فإنها وحدها **لا تكفى لقيامه ، ومن الضرورى أن توجد بجوارها ضرورة الدفاع عن أعضاء هذا المجتمع والزود عن حياضه** ، ومن ثم فإنه من الضرورى وجود

طبقه اجتماعية وظيفتها أكثر من الطبقة الأولى حيوية وأرقى عاطفة وتتميز بالشجاعة وإحتقار المخاطر فى سبيل حمايه كيان المجتمع ،هى طبقه المحاربين، وهى تشبه (**القوة الغضبية أو قوة النزوع**) فى النفس البشرية .

وبجوار ذلك فإن (**المدينة الفاضلة**) من وجهة نظر أفلاطون ، تحتاج بجوار ضمان سبل العيش ووسائل الدفاع ، تحتاج إلى أن تحكم نفسها، بمعنى أنه من الضرورى قيام طبقة وظيفتها وضع التشريعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والإشراف على تنفيذ تلك التشريعات ، هذه الطبقة هى طبقة الحكام والرؤساء وخصائصها فضيلة الحكمة ، وهى تشبه فى المجتمع (**القوة الناطقة**) أو (**القوة العقلية**) فى النفس البشرية ووظيفتها القيام بعمل يشبه عمل (**حكام**) **الدولة فى مملكة النفس** .

يستخلص من هذا أن أفلاطون يتطلب فى طبقة الإنتاج أن تكون فضيلتها التعفف والإعتدال ، وأن تكون فضيلة طبقة المحاربين هى الشجاعة والمخاطرة وطبقة الحكام فضيلتها الحكمة والحزم . حتى إذا توافرت تلك الفضائل ، توافرت للدولة حالة النظام والتناسب التى تتحقق فيها (**العدالة**) كما تتحقق الفضيلة فى النفس الإنسانية ، بمعنى أن العدالة وإن كانت ليست فضيلة رابعة ، على إعتبار أنها تنشأ فى جو المجتمع ، فإنها تنشأ كما تنشأ الفضيلة من مقومات النفس البشرية . ولا يكتفى أفلاطون بذلك ، وإنما يؤكد أن هذا التقسيم الطبقى هو تقسيم طبيعى أقامته الطبيعة وحددت وظائفه وعينت عناصره ، بمعنى أن طبقة الحكام من الذهب الخالص وطبقة المحاربين من الفضة ، وطبقة العاملين من الحديد وبقية المعادن المماثلة .

وعلى هذا يؤكد أفلاطون إنقسام المجتمع إلى ثلاث طبقات متمايزة بحكم الطبيعة . ويرى أن لكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث وظيفة هيأتها الطبيعية لها ، وخصتها بها بحيث لا ينبغى لها أن تتدخل فى عمل الطبقة الأخرى . ويترتب على ذلك أن تختص الطبقة الممتازة فى المجتمع بالحكم ولا يشاركها فيه أحد من الطبقات الأخرى ، وخاصة الطبقة المنتجة ، لأنها

لا تملك الحكمة ولا التربية ولا التعليم الذى يهيؤها للاشتراك فيه ، ومن ثم نراه يخص كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث بفضيلة تناسب طبيعتها — كما سبق أن أوضحنا ذلك — فى حين يختص الحاكم بفضيلة الحكمة ، ويختص الحراس بفضيلة الشجاعة ، يقول إن فضيلة الطبقة المنتجة من الشعب هى فى إلتزامها العفة أو الإعتدال لكى تعنى بتنظيم ملذاتها وإنفعالاتها ، وبحيث تتحكم دائماً فى شهواتها .

ومن هنا فإن هذه الفضائل الثلاثة هى الشروط الواجب توافرها فى طبقات الشعب لكى تتوفر العدالة فى الدولة . وبناء على ذلك فإن تعريف العدالة يتلخص فى أداء كل فرد فى المدينة « الدولة » للوظيفة التى هيأته الطبيعة لها ، وإلتزامه بالفضيلة المناسبة لطبقته ، وعلى العكس من ذلك يكون الظلم والشر ، حين يتعدى أحد الأفراد أو الطبقات على عمل غيره ، حيث يؤدى ذلك فى نظر أفلاطون إلى ضياع العدالة ، لاسيما عندما يشارك خاصف النعل أو صانع الأقفال أو النجار . . . فى عمل الفيلسوف الحكيم الذى له وحده حق الحكم . وواضح أن أفلاطون هنا يهدم جانباً أساسياً من جوانب الحكم الديمقراطى فى عصره ، بل وفى كل العصور .

ولم يكتف أفلاطون بذلك ، وإنما أكد فى إحدى محاوراته على لسان سقراط إعتباره لاشتراك قوى الشعب العاملة فى الحكم نوعا من الفوضى حيث قال « إذاً فالتعدى على أعمال الغير — أى أعمال الفلاسفة — وإختلاط طبقات المجتمع الثلاث ، ليس فى الواقع إلا الفوضى بعينها والدمار . بل هو جريمة لا شك فيها . وعلى الجملة ، يجب أن يقصر كل امرىء همه على عمله الذى يحسنه ، لا فى الحكومة فقط ، ولكن فى كل شئون الحياة ، ويجب ألا يتدخل الإنسان فى شئون الناس الآخرين لكى يدير العالم وشئونه الخبراء وأهل الاختصاص .

وتقوم نظرية إفلاطون هذه فيما يتعلق بفئة الفلاسفة وتميزهم بالطبيعة على بقية فئات المواطنين ، على أساس أنهم فئة خاصة من بنى الإنسان ،

وهبوا حاسة لا توجد لدى غيرهم من الناس وهى حاسة إدراك الحقائق العامة والمقولات المحضة . وأيضاً على أساس عدم توصلهم إلى هذه الحقائق عن طريق الملاحظة أو الاستنباط ، وإنما يتوصلون إليها عن طريق **الإلهام والإشراق** . فهم يلهمون هذه الحقائق إلهاماً ، وتشرق عليهم إشراقاً ، وتفيض عليهم عفواً من غير جهد ولا عناء . وأصل ذلك ما ذهب إليه من أن النفوس قبل إتصالها بالأبدان كانت تعيش فى « **عالم المثل** » وقد أتيح لها وهى فى هذا العالم إدراك كثير من الحقائق العامة ، ولكنها بعد أن إتصلت بالأبدان نسيت معارفها الأولى ، غير أنها فى أبدان الفلاسفة ، وهم الذين خصوا **بالحاسة السالفة الذكر التى تستطيع أن تتذكر هذه المعارف ، إذ مر بها فى هذا العالم المادى مايثير حقائقها ويدعو إلى إستعادتها** . ولا تحدث لديها هذه الإثارة وهـــذه الاستعادة عن طريق الملاحظة أو الإستنباط ، وإنما يحدثان عن طريق الإلهام والإشراق(١) .

ولا ريب أن أفلاطون بهذه النظرية قد أوضح إتجاهاً مثالياً أكد إنصرافه عن واقع مجتمعه الذى أعلن فيه مبادىء تقدمية فى السياسة والحكم . فقد أخذت الديمقراطية فى عصره بمبدأ إختيار الحكام والقضاة بالانتخاب وبالإقتراع إمعانا منها فى المساواة بين جميع أفراد الشعب ، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء . وأخذت أيضاً بمبدأ التصويت العام فى الأمور العامة ، فاحترمت رأى الأغلبية العددية فى كل الأمور . ومعنى ذلك أن أفلاطون كان موقفه عكس ذلك ، حيث إعتبر رأى الأكثرية وتدخلها فى السياسة والحكم مصدراً من مصادر الفوضى ، ذلك أن العدالة عنده تقضى بأن يخصص للحكم طبقة ارستقراطية لها بالطبيعة مواهب الحكمة والشجاعة التى لا تتوافر عند باقى أفراد طبقات الشعب . وهى الصفوة من طبقة الحراس . أما الديمقراطية « **التى بلغت ذروتها فى الانتخاب بالقرعة** » على إعتبار أن جميع الناس متساوون ، فقد إعتبرها مرضا أساسياً .

---

(١) الدكتور على عبد الواحد وافى : مذكرات فى علم الاجتماع : مطبوعة بالإستنسل ، مؤسسة الأنوار للطباعة والنشر : الرياض ١٣٩٨ هجرية صفحة

وأكد أن هذه الطبقات وإن كانت من طبائع مختلفة ومعادن متباينة ، فأنها ليست منفصلة اجتماعياً ، ولكنها مرتبة ومتماسكة ومتكاملة اجتماعياً ، وهى فى مجموعها تشكل وحدة اجتماعية دعامتها الفرد ، الذى تفرض عليه الحياة الاجتماعية أن يقوم بالوظيفة التى يحددها جهاز الدولة .

نخلص من هذا إلى أن المدينة (الدولة) الفاضلة كما يراها أفلاطون تشكل وحدة اجتماعية عناصرها الأفراد الأحرار المتساوون ، ولكل منهم وظيفته الاجتماعية التى يمارسها طبقا للتشريعات العادلة التى تضعها طبقة الحكام ، فإن هؤلاء كما تربطهم أواصر الأخوة ، نجد أن وظائفهم تتكامل بحيث تنجز مهام وظائف الطبقات الاجتماعية الثلاث . يضاف إلى ذلك أن طبقة الحكام طبعت على حب العلم والفلسفة ، ومن ثم لا يصدر عنها إلا كل ماهو عادل وفاضل . وعلى أهل تلك المدينة الفاضلة أن يمارسوا حياتهم الاجتماعية فى شكل أسرة واحدة دعامتها العدالة ورائدها تحقيق الرفاهية والتحلى بالصفات الفاضلة ، والبعد عن طلب الملاذ أو متع الحياة أو الإسراف فى طلب المال . ولا يتخذون من الحرب ذريعة لتحقيق أطماع غير مشروعة .

٢ — التنشئة الاجتماعية فى مدينة أفلاطون :

لم تكن المجتمعات فى عهد أفلاطون متماسكة ومنظمة ، وإنما كانت مضطربة وبعيدة عن الإستقرار الاجتماعى ، ويرجع ذلك من وجهة نظره إلى قصور فى تكوين العناصر الضرورية لقيام الوحدة الاجتماعية . وقد بحث أفلاطون عن علاج لذلك ، ووجده فى التربية الاجتماعية للصغار باعتبارهم كأقراص الشمع يمكن تشكيلهم طبقاً للمواصفات المطلوبة . حتى يمكن الحصول على طبقة الحراس (أى طبقة الحكام وطبقة المساعدين أو الجند) باعتبارهم أهم طبقات المجتمع ، وعلى جهودهم تتحقق السعادة الاجتماعية . ومن هنا فإنه عن طريق التربية الاجتماعية السليمة يمكن الكشف عن ملكات الممتازين من الأطفال وتعهدهم بالتربية لتحويل قدراتهم الفطرية إلى إستعدادات مهنية تتفق مع متطلبات الدولة .

ولهذا يرى ضرورة إشراف الدولة على شئون التربية لجميع المواطنين ، بمعنى أن تتسلم الدولة الأطفال من أمهاتهم عقب ولادتهم ، وتعهد بهم إلى مربيات عموميات ، أى موظفات فى الدولة للقيام بحضانة ورعاية هؤلاء الأطفال . ومن ثم ينشأ الأطفال فى دور الحضانة العامة هذه ، لا يعرفون أباءهم ولا أمهاتهم . وعندما ينتهون — فى سن السابعة — من الحضانة يفصل الأطفال الذين يدل إختبارهم على أنهم لا يصلحون لغير الأعمال الجسمانية ، أى الأعمال التى تدخل فى نطاق الصناعة والزراعة وما يتصل بهما . وهؤلاء يكتفى فى تربية كل منهم بأن يؤخذ بشئون المهنة أو الحرفة التى سيزاولها فى مستقبل حياته .

هذا ومن أهداف التنشئة الاجتماعية لدى أفلاطون ضرورة التميز بين الأحداث الذكور والإناث وإختيار الذين يتميزون بالتكامل الجسمانى والقوة البدنية والذين يتوافر لديهم الاستعداد للقتال وتزويدهم بالتربية البدنية والرياضية لزيادة قواهم الطبيعية والمحافظة عليها . يضاف إلى ذلك ضرورة تزويد هؤلاء بقدر من الآداب والفنون وغرس حب الفضائل وقواعد الدين التى تقوم على الإيمان بوجود الله والتسليم بعدالته عن طريق النصح والإرشاد ، على إعتبار أن كل تربية لا تقوم على أساس دينى تربية ناقصة .

هذه التربية تستمر مع البنين والبنات حتى **الثامنة عشرة من أعمارهم** ، ثم يوجهون إلى مزاولة التدريب للعسكرى طوال عامين كاملين . ومن يثبت إمتيازه منهم يستأنف الدراسة والبحث **لمدة عشر سنوات فى أربع مجالات** دراسية هى : الرياضة البحتة بطريقة نظرية خالصة ، حتى تنهض بالقوى العقلية وتورث صاحبها القدرة على الغوص فى المعانى المجردة وتساعد على « إشراق » الحقائق وتجليها ، وكذلك دراسة الهندسة ، الفلك ، الموسيقى لتزويدهم بخلفية علمية تدفعهم إلى حب الفلسفة والحكمة . فقد كان نظام التعليم فى العصور الوسطى قريباً جداً من المقررات الدراسية فى « **الجمهورية** » حيث قسمت العلوم فى العصور الوسطى إلى مجموعة رباعية Quadvivium

تتكون من الحساب ، الهندسة ، الفلك ، والموسيقى أما الجدل الذى جعله أفلاطون الهدف الرئيسى من الفلسفة فقد إختلف وصفه فى دائرة معارف العصور الوسطى ، إذ وضع مع الخطابة والنحو ، ضمن المجموعة الثلاثية Trivium .

وعندئذ يتم اختيار أصحاب الإستعداد الفلسفى من الذكور والأناث ليعكفوا طوال خمس سنوات على دراسة الفلسفة والمنطق وإجادة البحث عن حقائق الأشياء وفى نهاية ذلك تكون أعمارهم قد وصلت إلى الخامسة والثلاثين. وعندئذ تسند — إلى الممتازين منهم — الوظائف الحربية والإدارية إلى أن تصل أعمارهم إلى الخمسين . وهنا يتم إختيار الممتازين منهم فى الأعمال الإدارية والحربية لترقيتهم إلى مرتبة الحكام وإسناد الوظائف الرئيسية إليهم لوصولهم بمقاليد الحكم إلى مرتبة الفلسفة الخالصة ، على حين أن طبقة الجند تشكل ممن يتخلفون أثناء تلك المراحل التربوية .

والحكام فى الدولة الأفلاطونية — وهم يقسمون إلى (حكام بالمعنى الحقيقى) وإلى (مساعدين) وهم الجنود — يشغلون مركزاً جليلا . ولابد لهم — من أجل القيام بوظائفهم على أكمل وجه — من مزيج من المزايا والصفات ، إذ من الضرورى أن يجمع الحاكم فى نفسه الفلسفة ، والشجاعة ، والسرعة ، والقوة ، فيكون شجاعاً بالنسبة للأجانب .. ولطيفاً بالنسبة للرعية ، ويجب أن يتعلم ويتربى للوصول إلى هذه الأهداف على أسس المنهاج التربوى السالف الذكر .

والتربية والتعليم هما من الأسباب الرئيسية فى إيجاد الحاكم الصالح ، غير أن التعليم . حتى وإن تمشى مع المبادىء التى خططها أفلاطون — لا يكفى لأن ينتج الحاكم الصالح ، وبالتالى يجب الاحتياط من أن يصبح الحكام ، وهم أقوى من الرعية ؛ خطراً عليهم ؟ أفلا يصح أن يصير هؤلاء وحوشاً ضارية تفترس الرعية بدلا من رعايتها ؟ ألا يمكن أن تهجم الكلاب التى رباها الرعاة للحراسة على الأغنام بدلا من الذئاب ؟

إن الحل لتلك المشكلة وجده أفلاطون فى شيوع الملكية . ولكى يحول دون تسرب الفساد إلى الحكام . ولكى تتوافر لديهم أعظم الخصائص : الحنان واللطف — نحو رفاقهم ونحو الذين يحكمونهم . يجب أن يترفعوا عن زخارف الحياة ، فلا يكونوا كغيرهم من الناس ، يتعثرون فى شئون الدنيا وشجونها . . ويعبر أفلاطون عن ذلك بقوله :

والآن دعنا نبين طراز حياتهم وسكنهم إذا أريد أن يكونوا على ما ذكرت من الأوصاف : فيجب أن لا يتملك أحدهم عقارا خاصاً ما دام ذلك فى الإمكان ، وأن لا يكون لأحدهم مخزن أو مسكن يحظر دخوله على الراغبين ، ويجب أن يكون طعامهم أقل مما يتطلبه الجنود الشجعان المدربون. الذين يتحلون بفضيلتى الشجاعة والعفاف ، ويجب أن يوافقوا على أن يتقاضوا من الرعية أجرة سنوية معينة لقاء خدمتهم ، تكفيهم دون أن يفيض منها شيء أو تقصر دون سد حاجاتهم ، ويجب أن يعيشوا كالجنود فى الثكنات على الموائد المشتركة ويجب أن يعلنوا أن الآلهة إكتنزت فى نفوسهم ذهباً وفضة سماويين ولذلك فلا حاجة فيهم إلى الركاز الترابى ، وعار عليهم أن يدنسوا بضاعة الآلهة الأبدية بالذهب الفانى . ذلك لأن هذا المعدن الأرضى كان مصدرا لكثير من الشرور ، بينما الذهب السماوى ظل بعيدا عن الفساد. وهم وحدهم من بين كل رجال المدينة ، مستثنون من مس الفضة والذهب فلا يدخلونهما تحت سقفهم ولا يحملونها ، ولا يشربون بكئوس صنعت منهما . وبذلك يصونون أنفسهم ودولتهم . ولكنهم إذا إمتلكوا أراضى وبيوتا ومالا ، ملكاً خاصاً ، صاروا مالكين وزراعا عوض كونهم حكاما. فيصيرون سادة مكروهين ، لا حلفاء محبوبين ، ويصبحون مبغضين ومبغضين ، يكاد لهم ويكيدون ، فيقضون الجانب الأكبر من حياتهم فى هذا العراك ، وخوفهم العدو الداخلى أكثر جدا من خوفهم العدو الخارجى ، وفى حال كهذه يرمون بأنفسهم ويسيرون بالدولة إلى الدمار »(١) .

---

(١) ص ٤١٦ — ٤١٧ من الجمهورية .

(٥) أرسطو :

أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق – م) كانت فلسفته متأثرة بفلسفة أستاذه أفلاطون ورد فعل لها معاً وقامت آراؤه الاجتماعية أيضاً على أصول فلسفته وانسجمت معها ، وهي أقل إندفاعاً وتهوراً من آراء أفلاطون . إذ كان أرسطو أكثر تلمساً للحياة الواقعية وأشد اعتماداً على التجربة النظرية بوجه عام سواء في بحوثه الاجتماعية أو في بحوثه الفلسفية . وقد أثرت فلسفته في السياسة بطريق غير مباشر . حيث كان من بين تلاميذه الذين تشبعوا بآرائه وعملوا بها الإسكندر المقدوني . هذا ولم يلجأ إلى الخيال ليستنبط منه آراءه مستخدماً المنهج العقلي مثل أفلاطون . ولذلك جاءت آراء أفلاطون بعيدة عن الواقع ، ولا سبيل إلى تحقيقها ، **على حين كانت نظريات أرسطو قائمة على رد المركب إلى عناصره غير القابلة للتحليل ، على إعتبار أن الرجوع إلى أصول الأشياء وتتبع تطورها هو الأسلوب السليم لدقة ملاحظتها(١)** . ولقد جاءت نظريات أرسطو الاجتماعية في كتابه الرئيسي (السياسة) ومن أهمها :

- نظرية نشأة المجتمع .
- نظرية الرق .
- نظرية قيام الثورات .
- نظرية قيام مجتمع فاضل على غرار مدينة أفلاطون .

ويمكن مناقشة تلك النظريات الاجتماعية على النحو التالي :

١ – نظرية أرسطو في نشأة المجتمع :

من أول الموضوعات التي تناولها بالدراسة ، **موضوع تكوين الجماعات السياسية ، أي الجماعات الاجتماعية** . وقرر أن الأسرة هي أول وحدة

Politique d'Aristote, L. I. Ch. 1, 3.

اجتماعية ، باعتبارها أول اجتماع تدعو إليه الطبيعة البشرية . بمعنى أن **هناك حاجة أولية تتطلب اجتماع كائنين لا غنى لأحدهما عن الآخر وهما الرجل والمرأة** . وإستند فى رأيه هذا إلى أنه فى مملكة الحيوان — والإنسان من وجهة نظره حيوان اجتماعى (١) — والنبات توجد نزعة إلى أن يترك الكائن موجوداً على صورته (٢) . ذلك أن **الأسرة هى الوسط الصحيح الذى تتحقق فيه الحياة الاجتماعية** ووظيفتها إشباع الحاجات اليومية . هذه الأسرة مع الأسر المجاورة تشكل القرية ، كما أن القرية من جهة أخرى مستعمرة طبيعية للأسرة ، وهذه المستعمرة أوسع نطاقا من الأسرة ، ويسمح تكوينها بتقسيم العمل . ومن هذه القرية والقرى المجاورة تتكون **الدولة** (أو المدينة) وهى أكمل الوحدات الاجتماعية وتتوافر فيها فرصة الإكتفاء الذاتى . وعلى هذا فإن **الدولة من خلق الطبيعية وإنتاجها ، ووظيفتها تحقيق سعادة الأفراد ، تلك السعادة التى لا تتحقق بدون الدولة** .

ويركز أرسطو على الفرد باعتباره حيواناً سياسياً ومدنياً بطبعه . إذ أن الإنسان بطبيعته « **حيوان سياسى** » أى مدنى ، ومعنى هذه العبارة التى شاعت عن أرسطو أنه لا يمكن فصل الإنسان عن الحياة الاجتماعية ، ولا يتيسر فهمه معزولا عنها . وباعتباره أيضاً أكثر قابلية للحياة الاجتماعية من الحيوانات الأخرى ، لا سيما وأن الطبيعة قد إختصته بالنطق فتوافرت له بذلك فرصة التعبير عن الخير والشر . غير أن فكرة الشر لا تتحقق إلا فى وسط جمعى . وعلى هذا فإنه لكى يكون الفرد فرداً ، لابد وأن يعيش فى جماعة ، وإلا فإنه يتحول إلى إله . هذا الميل إلى الاجتماع مع الآخرين تدفع إليه الطبيعة ، كما أنه يحتاج إلى قوانين لتنظيم علاقات الأفراد ببعضهم البعض ، ***فالقانون هو قاعدة الاجتماع السياسى ، كما أن العدالة من الضرورات الاجتماعية والأحكام العادلة هى التى تشكل القوانين*** (٣) .

وينتهى إلى أن الفرد وإن كان الحقيقة الأولى فى البناء الاجتماعى ، **فإنه يذهب** فى المجتمع وتتلاشى شخصيته فى شخصية المجتمع . ذلك أن الدولة **لحمة النسيج والأفراد سداته** ، على إعتبار أن الدولة هى التى تحقق للفرد وجوده ، كما أن الإنسان الفرد فى الكون ليس له وجود(١) .

والمدينة أو المجتمع بهذا الاعتبار تتقدم فى منطق الأشياء على الأفراد ، تقدم الجسم كله على الأعضاء التى يتألف منها ، وأيضاً تقدم الكل على الأجزاء عامة . وكما يستحيل تصور اليد حية منفصلة عن الجسم ، فإنه يستحيل تصور الإنسان منفصلا عن المجتمع أو المدينة .

وينتقل أرسطو إلى دراسة الأشياء فى المجتمع ، فيقرر أن الدولة إذا كانت تتكون من قرى ، وإذا كانت القرية تتكون من عدة أسر ، فإن الأسر أو القرى لا تتراكم عددياً لتكوين القرية أو المدينة ، ولكنها تتآلف مع بعضها البعض مثل تآلف أعضاء الجسم ، بحيث لا يمكن فصل تلك الأعضاء عن بعضها البعض —**لتماسكها على أساس عضوى لا ميكانيكى**— من عدة أفراد فى وحدة عضوية ترتبط أجزاؤها إرتباطا وثيقاً ، وتتضامن فيما بينها تضامنا لا تنفصم عراه .

يضاف إلى ذلك قوله بأنه إذا كنا قد جعلنا من دراسة الإنسان وصلته بالمجتمع علما مستقلا هو علم السياسة ، فإنه من الضرورى إنشاء علم لدراسة الأشياء لا تقل أهميته عن علم السياسة . هذا العلم الجديد أطلق عليه اسم (علم **الثروات**) . ذلك أن الأسرة من أجل إشباع حاجاتها الأساسية تحتاج إلى الثروة ، ويمكن أن تحصل على حاجتها من الثروة عن طريق طبيعى أو غير طبيعى . هذه الطرق قد تكون مثل الصيد ، تربية الحيوان ودجنه ، ثم الزراعة ، وقد تكون صناعة أو تجارة أو إقراضاً للمال وما إلى ذلك .

ويوجب أرسطو على الدولة أن تنظم حياة المواطنين بالقوة القانونية، وتشرف عليهم بها ، على أن تكون العدالة هي هدف تلك القوانين . ويعمد أرسطو إلى العدالة فيحللها تحليلا عميقاً ، فيقول إن العدالة قد تعني مطابقة القانون الخلق ، وعندئذ تكون مرادفة للفضيلة ، كما هي عند أفلاطون . ولكنها قد تعني التساوي . وهي بهذا المعنى نوعان : **عدالة توزيعية** تقصد إلى توزيع الأموال والمراتب بين المواطنين توزيعاً يناسب كفايتهم ، **وعدالة تعويضية** تهدف إلى تنظيم معاملاتهم وتمنع وقوع الغبن فيما بينهم ، وتحيل إلى القضاء إن وقع حيف أو إفتئات فيما بينهم . ولا ريب أن القوانين تتميز بالتجريد والعمومية . ولذلك فإنه عندما يستحيل تطبيقها في بعض الأحوال الطارئة ، فإنه من الضروري تعديلها لكي تحقق ما يطلق عليه **أرسطو** «**الإنصاف**» الذي هو معيار تطبيق القوانين، بل وتبديلها أحياناً ، مع تشريع الجديد منها .

هذا ومن خلال دراساته العميقة لمثل هذه الأمور تعرض لدراسة ظواهر اقتصادية متعددة مثل : الإنتاج ، الإستبدال ، التوزيع ، الاستهلاك ومعايير تقويم الأشياء ، نظم النقد وأشكاله ووظيفته وما إلى ذلك مما يعتبر من صميم علم الاجتماع الإقتصادي ، حتى أنه يمكن القول دون ما تجاوز إن أرسطو وليس الفزيوقراط أو آدم سميث هو صاحب الفضل في إنشاء علم الاقتصاد السياسي ، وهو أيضاً — أول من قرر خطورة هذا العلم والظواهر التي يتناولها بالدراسة .

٢ — نظرية أرسطو في الرق :

كان الرق في عصر أرسطو يمثل عنصراً أساسياً في الأسرة ، ومن ثم فقد تناول أرسطو موضوع الرق من خلال تناوله لموضوع الأسرة ؛ تلك التي كانت تتكون من الزوج والزوجة والأبناء والأرقاء برئاسة الزوج باعتباره أقوى جسما وأرجح عقلا ، على حين أن المرأة ليست كذلك . كما أن الطبيعة لم تهيئها لمشاركة الرجل في الجندية وفي فن الإدارة والحكم ، كما قال

بذلك أفلاطون . وإنما وظيفة المرأة هى العناية بتربية الأبناء وبالنواحى المنزلية ، تحت إشراف وتوجيه وسيادة الرجل . ذلك أنه إذا كان أفلاطون قد قال بتربية واحدة للنساء والرجال لتأكيد المساواة الطبيعة بين الرجل والمرأة . فإن هذه المساواة عند أرسطو غير واقعية ، لأن المرأة فى ذاتها أقل منه . وإذا كان أفلاطون يحاول القضاء على الأسرة ، فإن أرسطو يمجدها ، ويرى فيها مجتمعاً بسيطاً يتم فيه تعليم الفضائل المبدئية وإكتسابها . وللمرأة فى الأسرة حق إبداء الرأى وللرجل حق البت والحكم بعد تقليب النظر ، بمعنى أن الأسرة مملكة صغيرة يستوى على عرشها الرجل .

وكان الرق نظاماً إجتماعيـــاً له وظيفة اجتماعية هى تحصيل الأقوات الضرورية لقوام الأسرة والقيام بالصعب من الأعمال ، **لأن الله خلقه كذلك جسماً بدون عقل ، بينما الأحرار خلقهم الله وزودهم بالجسم والعقل** . وما دام الرق كذلك فهو أشبه بالحيوان ، وعلى ذلك فإنه لا ضير من شن الحروب للحصول على الرق (**الحيوانات الأربعة**) تماما مثل صيد الحيوانات المتوحشة وقسم أرسطو المجتمع إلى **أحرار (وهم اليونانيون) والأرقاء (وهم من كانوا من غير اليونانيين)** أى من البربر ، هؤلاء البربر الذين لا يملكون أنفسهم ، ولا يتمتعون بأية حقوق مدنية باعتبارهم من الآلات الصماء التى تخدم كما تخدم الدواب . ولم يكتف أرسطو بالأخذ بذلك ، كما كان الحال فى المجتمع اليونانى ، وإنما بالغ فى زيادة الفروق الفردية بين الأحرار والأرقاء حتى أنه إعتبر الأرقاء أدوات للأسرة أو آلاتها الحية Instrument animés أو أنهم المجتمع المسترق الذى يقوم على أكتافه المجتمع الحر ، مع أن حياة المجتمع الحر مرهونة بأداء المجتمع المسترق لوظيفته . ومما لا شك فيه أن وجهة نظر أرسطو فى الرق تؤخذ عليه .

غير أننا إذا نظرنا إلى آرائه هذه من منظور اجتماعى نجد أنه كفيلسوف اجتماعى كان عليه أن يشاهد النظم الاجتماعية ويدرسها ويحللها ويكشف عن وظائفها الاجتماعية التى تقوم بها . وهذا ما فعله مع مبالغة فى تبرير الرق وتقريظه .

وكشف عن العوامل السياسية والأخلاقية وما عداها من ظواهر المجتمع التى تتفاعل وتتحد لخلق (**ظاهرة الثورة**) . كل هذا يؤكد أن أرسطو كان عالما اجتماعياً وخبيرا فى نفسية الشعوب وعقلية الجماعات وهو يدرس ظاهرة الثورات ، الأمر الذى أضفى على دراساته أهمية خاصة .

٤ — نظرية أرسطو فى المدينة الفاضلة :

فضل أرسطو مثل أستاذه أفلاطون ، فضل المدينة باعتبارها من أرقى صور الحياة السياسية ، أما المركبات السياسية المترامية الأطراف مثل الامبراطورية الفارسية ، فقد كانت من وجهة نظره **مركبات غير متجانسة يستحيل عليها تحقيق الغاية من الاجتماع الإنسانى** . بينما المدينة الفاضلة يستطيع فيها كل مواطن أن يجد الأمن والسعادة وفقاً للقوانين التى تنظم العلاقات الاجتماعية والمعاملات بين أفراد المجتمع .

شروط أرسطو لقيام المدينة الفاضلة :

يرى أرسطو أن الخيرات التى يستطيع الإنسان أن يستمتع بها على ثلاثة أنواع هى : **خيرات خارجية عنه ، وخيرات الجسم ، وخيرات النفس** . والإنسان السعيد من تهيأت له هذه الأنواع الثلاثة . ويلاحظ أن هذه الأنواع الثلاثة ليست متكافئة فى قيمتها . فالتجربة تؤكد أن الفضيلة الكبرى إذا إمتزجت بشىء يسير من الخيرات الخارجية ، هيأت سعادة أعلى مما تهيئه وفرة الخيرات الخارجية ، مع جزء يسير من الفضيلة ... ويتساءل أرسطو : أليست الخيرات الخارجية إذا زادت عن حد معين قد تنقلب إلى أضرار ؟ **على حين أن الفضيلة على العكس من ذلك لا إفراط فيها ، أى لا إسراف فيها** . ذلك أن الخيرات الخارجية وخيرات الجسم ، فى الحقيقة ، خادمة لخيرات النفس والعكس صحيح .

ويحدد أرسطو **مجموعة من الشروط** لقيام المدينة الفاضلة من أهمها :

١ — **مساحة المدينة التى ينبغى أن تكون متناسبة مع حاجة المواطنين** ، وبحيث توفر لهم الحياة الميسورة ، دون أن ينقلب ذلك إلى الترف والبذخ .

ولابد من تحصينها بحيث تغدو منيعة المداخل على العدو ، سهلة المخارج على سكانها . ومن الضرورى أن يكون لها مرفأ على البحر لأهميته الدفاعية من الناحية الحربية ، ولتلقى المساعدات من الحلفاء ، ولأهميته الإقتصادية فى التبادل التجارى وفى الإستيراد والتصدير . على أن يبقى الغرض هو تزويد المدينة بالمنافع ومبادلة الفائض لا مجرد كنز الثروات . ومن الضرورى أن تقسم أراضى المدينة بين المواطنين ، بحيث ينال كل مواطن مساحة معينة فى المدينة وأخرى فى خارجها ، حتى يكون لدى كل مواطن الدافع للدفاع عن المدينة والزود عن حياضها . على حين أن ما يتصوره العامة من أنه كلما إتسعت مساحة المدينة كلما كانت أفضل ، فإن أرسطو يرى أن هذا الرأى فاسد ، مثل الرأى الذى يقول بأنه كلما ضاقت مساحة المدينة كان ذلك أفضل لسكانها .

٢ ــ تكوين المدينة المورفولوجى والذى ينبغى أن يكون من تربة خصبة يسهل إستغلالها ، وأن تكون حولها موانع طبيعية لعرقلة حركة المغيرين ، بالإضافة إلى ضرورة وجود مجموعة من القلاع والحصون ، وكذلك شبكة من المواصلات تربط بين أجزائها حتى تتقدم المدينة اجتماعياً وتقوى من الناحية الدفاعية ، ومن ثم يصعب غزوها . ذلك أن أرسطو وإن كان يعارض الملكية المشتركة ، فإنه يقرر وجوب جعل جزء من الأراضى ملكا مشتركا للدولة من أجل نفقات العبادة والتغذية المجانية للربط بين المواطنين والتوحيد بينهم ، أما الملكية الخاصة فلكل مواطن يونانى حصتان من الأراضى : الأولى فى المدينة ، والثانية قريبة من الحدود ، مع مراعاة العدل فى القسمة حتى يكون للمواطن مصلحة فى الدفاع عن المدينة كلها ، كما سبق أن أوضحنا ذلك .

٣ ــ عدد سكان المدينة الأمثل الذى يراه أرسطو وهو مائة ألف نسمة ، على إعتبار أنه طالما كانت غاية الحياة الاجتماعية هى الفضيلة لا الغنى ، وجب أن يكون عدد سكون المدينة مناسباً لرخاء المدينة ولتقدمها الفكرى ، وميسرا للحكم الصالح ، وملائما لإنتشار النظام ، ومساعداً لتعارف المواطنين

وتدبير شئونهم ، وتوزيع المناصب عليهم حسب الكفاية ، بحيث يوضع الشخص المناسب فى المكان المناسب . و ثم فإن « **النظام الأمثل ينتج عن توافق العدد والسعة ، ولن يتحقق خير الدولة إلا إذا كان عدد مواطنيها مناسباً لمساحتها ورقعتها (١)** »

غير أن أرسطو يتخلى عن صفته الاجتماعية ويتحدث عن مجموعة من الإجراءات التعسفية التى يراها ضرورية لإستبقاء عدد المواطنين فى المدينة فى المستوى المناسب ، وهذه الإجراءات هى :

(ا) الإجهاض .

(ب) إعدام الأطفال ناقصى التكوين والمشوهين وفاسدى الأخلاق ، أو التخلص منهم بإلقائهم إحياء فى القفار والجبال طعاماً للسباع من الوحوش والطيور Exposition .

(جـ) تحريم الزواج على الشيوخ والعجزة وعلى كل من يبلغ الخمسين من عمره .

وذلك على إعتبار أن الرجال المتقدمين فى السن ، شأنهم شأن الأحداث لا ينجبون إلا مخلوقات ناقصة جسما وعقلا ولا جدوى من علاج تلك الثمرات الفجة(٢) .

٤ ــ **وللدولة ستة وظائف أساسية ويقابلها ست طبقات من السكان.** وهى توفير المواد الغذائية ويهيئها الزراع والمهن الصناعية ويزاولها الصناع والأسلحة لضبط السلطة فى الداخل ودفع العدوان فى الخارج ويتم ذلك بواسطة الجنود ، والثروات للحاجات الداخلية أو للحروب وتكون عند الطبقة الغنية . والعبادة ويقوم بها الكهان ، والإشراف على المرافق العامة والقضاء بين الناس وفض المنازعات ، ويقوم بذلك الحكام والقضاة .

ولذلك ينبغى أن يتألف النظام الطبقى فى المدينة على النحو التالى :

Ibid, L. 4. Ch., 4, 5, 6.

Ibid., L. 4. Ch., 14, 10, 11.

(ا) القائمون بإنتاج المواد الغذائية من الزراع ، والقائمون بتوفير السلع الإستهلاكية من الصناع والتجار . وهؤلاء ليس عندهم الوقت الكافى لممارسة الأمور السياسية والإدارية ، ومن ثم يحرمهم أرسطو من صفة « المواطن » ومن حق تملك الأرض أو أدوات الإنتاج — وذلك على خلاف أفلاطون — على إعتبار أنهم من العبيد والأرقاء المتوحشين .

(ب) رجال الإعلام والفن التشكيلى الذين يقدمون خدمات إعلامية ومستلزمات فنية لا غنى عنها فى الحياة الاجتماعية .

(ح) جيش وطنى يزود عن حياض الوطن ، ويتميز بالشجاعة التى هى ضرورية له . ولما كان الجند . هم أقوى المواطنين وأشجعهم فربما لا يرضون أن يكونوا مجردين من السلطة ، لذلك يلزم أن يصبح الجند أنفسهم فى نضجهم وكهولتهم حكاماً وفى هرمهم قضاة .

(د) طبقة الأثرياء الذين يمدون الدولة بالمال اللازم للميزانية التى تنفق منها على تسليح الجيش وتنفيذ المشروعات .

(هـ) طبقة رجال الدين :

وبالنسبة للحكومة فى المدينة الفاضلة ، فقد ذهب إلى أن لها ستة أشكال ، ثلاثة منها صالحة والثلاثة الأخرى فاسدة :

(و) طبقة الحكام ورجال القضاء

— فالحكومة الصالحة هى :

(ا) الحكومة الملكية أو المونارشية Monarchique وهى التى يستقل بالحكم فيها ملك عادل رشيد .

(ب) والحكومة الأرستقراطية أو حكومة الأشراف Aristocratique وهى التى يتولى الحكم فيها جماعة من أماثل القوم وأفاضلهم .

(ج) والحكومة الجمهورية Republic وهى التى يشترك فيها جميع أفراد الشعب عن طريق ممثليهم المختارين إختياراً حراً .

٥ – نظام التربية الضرورى للحصول على (المواطنين الأحرار) وشروط تنميه ملكاتهم وترويضهم على الفضائل الخلقية والدينية . وقد جاءت دراساته فى هذا المجال مليئة بالنصائح والتوصيات التى لا تزال حتى يومنا هذا من أهم مقومات التربية العلمية . كما كانت مليئة بكثير من النظريات التربوية والنفسية التى تعالج تربية النشء تربية سليمة . والتى لا تقل شأنا عن النظريات التربوية والنفسية الحديثة .

والصداقة هى الكوبرى الذى يربط بين الحياة السياسية والحياة الاجتماعية ومعنى الصداقة عند أرسطو يتميز بالإتساع ، فهى تفيد عنده علاقة الإنسان بالآخر . أياً كان نوع تلك العلاقة ، أى تعنى جميع الروابط الاجتماعية ، وروابط الأسرة ، روابط كلها الإنسانية . ورأيه فيها مشهور ، ولها عنده درجات ، وأولى هذه الدرجات وأدناها : صداقة اللذة ، كصداقة الصغار ، وهى سريعة الحصول كما هى سريعة الزوال ، ثم صداقة المنفعة وتبادل الفوائد ، كصداقة الشيوخ يدفعهم إليها ضعفهم وحاجتهم إلى من سواهم ، ثم صداقة الفضيلة وهى أرفع الدرجات ، لأن الفضيلة تجعل الصداقة حباً متبادلا قائماً على الاحترام والتشابه وهذا معنى الصداقة الحقيقى ، وما عداه صداقة على سبيل المجاز .

إن الإنسان السعيد — كما يرى أرسطو — ليس بأقل حاجة إلى الصداقة من الإنسان التعس ، وصداقته أنبل من غيرها لخلوها من المنفعة ، فهي تعبر عن سجاياه المدنية ومزاياه الخلقية ، ومن أسدى إلى صديقه يدا إزداد فضله ، وإسداء الأيادى أفضل من تلقيها . فالصداقة هى أكمل العلاقات الإنسانية . ولذلك يقول أرسطو « **إذا تحاب الناس فلا حاجة بهم إلى العدالة ، وبالعكس من ذلك إذا قل حظهم من الصداقة فليس لهم نصيب من العدالة ، وليس شيء فى العالم دون ريب أعدل من العدالة التى يمليها الرفق وتوحى بها المحبة** » وتكاد الفضيلة ترتدى رداء الصداقة عند أرسطو فيقول : **إن فريقاً من الناس يذهبون إلى عدم التفريق بين الإنسان الفاضل والإنسان المحب** »(١) .

نخلص من إستعراض شروط أرسطو فى قيام المدينة الفاضلة ، إلى أنها شروط غير واقعية ، بالرغم من أنه إستمد دعائمها ووقائعها من دراسته لعديد من المدن التى كانت قائمة فى عصره . ولما كانت دراساته قائمة على الملاحظات والمشاهدات فإنها بالرغم من ذلك تعتبر دراسة شيقة فى بنية المجتمع وتخطيط المدن وتحديد سكان المجتمع وما إلى ذلك من الدراسات التى تعتبر من أهم مقومات الدراسة المورفولوجية والديموجرافية .

وبالإضافة إلى ذلك يرجع إلى أرسطو الفضل فى إنشاء عدد كبير من العلوم ، لعل من أهمها علم المنطق الصورى ، الذى لا يزال يحمل إسمه فى الوقت الحاضر ، وبحوث التاريخ المقارن التى عالجها فى كتابه عن نظم المدن الإغريقية .وهو أول فيلسوف أدرك أهمية الحياة الاجتماعية وضرورتها للفرد إدراكا واضحاً ، حتى لقد عرف الإنسان بأنه حيوان مدنى بالطبع أو بطبعه ، أى حيوان اجتماعى .

---

(١) السهر وردى : عوارف المعارف : طبعة مصر ١٩٣٩ حيث جاء فى صفحة ١٩٣ « وقيل لو تحاب الناس وتعاطوا أسباب المحبة ، لاستغنوا بها عن العدالة » وهذا القول ناتج عن التأثر الواضح بأقوال أرسطو السابقة الذكر .

ويلاحظ على دراسات أرسطو أنها قائمة على للوصف والشرح والتحليل والمقارنة ، وعلى محاولة إستخلاص العلل والأسباب ، بمعنى أنه كان يبحث فيما هو قائم وليس فيما ينبغى أن يكون ، إلا إذا كان ذلك تكملة لدراساته النظرية ، وتلك هى خصائص العالم الحق. ومن ثم فإن أرسطو ، قد تناول بالدراسة موضوع علم الاجتماع ومناهجه وأسس الدراسة فيه ، غير أنه لم يتناولها باعتبارها موضوعاً لعلم الاجتماع ، ومن هنا يمكن القول إقراراً للحق وللتاريخ الاجتماعى أن أرسطو يرجع إليه الفضل فى التبشير بعلم الاجتماع .

هكذا نشأت فى اليونان تلك الآراء الاجتماعية التى بلغت أوجها عند الفيلسوفين الكبيرين أفلاطون وأرسطو . ولكنها كانت فى الغالب آراء مشيدة على أصول فلسفية ، ومشتبكة معها ومترتبة عليها .

وبوفاة أرسطو بعد وفاة الاسكندر الأكبر بعام واحد إنحدرت الدراسات الاجتماعية فى اليونان إنحداراً كبيراً ، لا سيما بعد تجزئة الإمبراطورية المقدونية إلى أشلاء ، وبعد نشوب الحروب الداخلية فيها ، فضلا عن إنتشار الفتن فى المدن اليونانية . ولم يعد إهتمام المواطن اليونانى حول إصلاح المدينة ، وإنما حول صلاح حاله فحسب .

الفصل الثالث

التفكير الاجتماعى للفلاسفة المسيحيين

يردنا التفكير الاجتماعى المسيحى الذى كان آخذاً فى النشأة والتكوين — عندما أخذت الإمبراطورية الرومانية فى الذبول والإنهيار — إلى الفكر الاجتماعى الشرقى الذى كان يصور التنظيم الاجتماعى فى المجتمعات الشرقية التاريخية ، على إعتبار أنه إمتداد علوى. أو هو من وحى عالم إلهى يتولى مباشرته عاهل مؤله (فرعون فى مصر . وبراهما فى الهند ، وابن السماء فى الصين) . ومن هنا جاء الفكر الاجتماعى المسيحى مناقضا للفكر الاجتماعى اليونانى الذى أكد الاستقلال المطلق للإنسان . كما جاءت النظرية الاجتماعية المسيحية مصطبغة بنوع من القدرية التى ترتكز أساساً على فكرة التعارض بين العالم الإلهى والعالم الأرضى كما كانت ترى — أيضاً — أن الطبيعة البشرية هى أساس الخطيئة والرذيلة الكبرى ، ولذلك كانت أهدافها أخلاقية .

ومما هو جدير بالذكر أن الفكر الاجتماعى المسيحى ، أدخل إلى الواقع العملى مسألة تحرير الرق على مراحل ، على أساس أن الفكرة الحقة التى جاءت بها المسيحية هى المساواة بين الأفراد على إعتبار أنه ليس هناك أغنياء وفقراء ، سادة وعبيد ، أحرار وأرقاء ، بالإضافة إلى الأخذ ببعض الحوافز التى تخفف من مظالم النظام الطبقى والطائفى . وهذا على أساس أن الله عندما خلق الناس أرادهم متساوين . ولذلك فإن النظم الاجتماعية فى المجتمعات المسيحية ، كانت تتأرجح فى أول أمرهـا بين المقتضيات الأرستقراطية للنظام الإقطاعى ، والمقتضيات المسيحية التى حاولت أن تحول دون أن يحقق هذا النظام أهدافه البعيدة . وفى ظل تلك النظرية أصبح القانون إلهياً والأخلاق إلهية إنسانية ، بعد أن كانت مجتمعية وضعية . كما

أصبحت مبادىء التسامح والعدالة والمساواة والإخاء . . . . مطالب متصورة لذاتها ، تحكم — أو من الضرورى أن تحكم — المعاملات الإنسانية والعلاقات الاجتماعية .

هذا وتتجسد الأفكار الاجتماعية المنظمة لدى ثلاثة من فلاسفة المسيحية هم كليمان الإسكندرى (الذى يمثل الفلسفة المسيحية فى نشأتها الأولى) والقديس أوغسطين (الذى يمثل الفلسفة المسيحية فى القرون الوسطى) وسان توماس فى بداية عصر النهضة ... كما سيتضح ذلك فيما بعد :

١ — كليمان الاسكندرى :

من أول الفلاسفة المسيحيين الذين وصلت إلينا أخبارهم ، (كليمان الإسكندرى) وكان زعيما لمدرسة الإسكندرية المسيحية . وهو من الذين ناقشوا دعائم (الملكية الفردية) وأوضح أهمية المشاركات الوجدانية . ومن فلاسفة المسيحية الذين عاصروا كليمان الإسكندرى نجد القديس بولس وغيره ممن نادوا بتحرير الأرقاء ، ونصحوا الفقراء بالصبر ، والعبيد بالهدوء والسكينة . واعتبروا التميز بين الفقراء والأغنياء أشد ظلما من التميز بين الأحرار والأرقاء . ومن هنا كانت دعوتهم إلى المساواة الاجتماعية . ويبدو أن دعوتهم هذه لم تجد إستجابة كبيرة . ومن ثم لجأت بعض الطوائف المسيحية إلى حياة العزلة لفترات طويلة فى ظل نظم أقرب إلى الشيوعية .

٢ — القديس أوغسطين :

إذا كانت أفكار المسيحيين الأوائل أمثال كليمان الإسكندرى وزملاؤه غير واضحة ، فإنها عند أوغسطين ومن جاء بعده أشد وضوحاً ، حيث إستقى أصولها من الفلسفة اليونانية وأضفى عليها الروح المسيحية . هذا ومن الموضوعات الاجتماعية التى كانت ذات أهمية خاصة لديه موضوع الأسس التى تقوم عليها الحياة الاجتماعية . وكان من رأيه أن المجتمع ليس جمعاً من